لعنة القطط

منذ صغري وأنا أخشى القطط، أو كما يقولون عندي فوبيا القطط .. قد يكون مرجع ذلك أن عائلتي عندما كنت طفلاً كانوا يخوفونني بالقطط كي أتوقف عن البكاء المتواصل، غير أن ذلك كان في سنواتي الأولى التي لم أتذكر منها شيئاً، ولعل السبب الحقيقي يرجع إلى ما قصته والدتي عليّ من حكايا الجن الذي كان يتشكل على هيئة القطط.

وكان مما قصته عليّ وأنا صغير أن شقيقها كان مغرماً بصيد السمك، وخاصة في موسم الجفاف، يقيم السدود الطينية في الترعة وينزح منها الماء ليتمكن من الإمساك بالسمك، ولا يعود إلى بيته إلا بعد أن يحصل على كمية وفيرة منه.

وبسبب رائحة السمك الدائمة في البيت، فالقطط لا تنقطع عن البيت؛ لأنها تحب هذا النوع من الطعام، وذات ليلة تسلل قط وسرق سمكة من السمك المعدّ للعشاء..!!

هاج الرجل وماج وثار ثورة عنيفة وأقسم لو رأى هذا القط ليقتلنه، وذات مساء رأى قطاً يتسلل إلى الغرفة، وكان قد جهّز نفسه وأعدّ عدّته فأغلق الحجرة عليه، وظل يضرب القط حتى سقط ميتاً، خرج من الغرفة حاملاً جثة القط المقتول ليلقي بها بعيداً عن البيت..وبينما هو يحملها اكتشف بأنها قطة وليس قطاً، فأدرك أنه أخطأ ؛ لأنه كان يعلم أن الذي سرق كان ذكراً، وليس أنثى..!

لكنه لم يندم على فعلته ونام في هذه الليلة هادئ النفس، مستريح البال؛ لأنه انتقم لنفسه من القطط عموماً، ولم يحنث في قسمه الذي أقسمه.

كانت الإضاءة خافتة حينما استيقظ من نومه منتصف الليل، نظر عن يمينه وعن شماله فوجد زوجته وأولاده يغطون في نوم عميق، رأى رجلاً في وسط الدار يدعوه للخروج، ظن أن الباب الخارجي للدار لم يغلق فهب من مرقده ليغلق الباب الكبير، فوجد نفسه يمشي في طريق طويل مظلم وهذا الطريق ينحدر إلى أسفل، تعجب ..!! لم يكن باب الدار بعيداً لهذه الدرجة، وظل يسير في نفق مظلم وأمامه ذلك الرجل الذي رآه منذ قليل في وسط الدار، لكن هذا الرجل ظل صامتاً لا ينطق بكلمة حتى وصلا إلى مكان فسيح.. اختفى الرجل فجأة، وظل هو حائراً في هذا المكان الذي يراه لأول مرة، من بعيد لاح له قصر كبير، ذو قبة زبرجدية ضخمة، وأمامه حديقة كبيرة، شعر بالظمأ في هذا المكان الموحش، فقرر الاقتراب من هذا القصر لعله يحظى بشربة ماء تروي ظمأه.

ما إن اقترب من المكان حتى وجد رجالاً كثيرين يتجمعون حول شيء ملقى على الأرض.. اقترب أكثر ليرى على الأرض شابة قتيلة مضرجة في دمائها ماتت وجنينها في بطنها، فجعل يسأل من حوله عما يرى:

ـ أهو حادث؟! أم ....ماذا؟!

لكنه لم يجد جواباً من أحد، ينظرون إليه شذرا ثم يتركونه.

أقبل عليه رجلان.. اقتدياه إلى ما يشبه المحكمة..وجد امرأة ثائرة نافرة منكوش شعرها، ممزقة ثيابها، تصرخ وتولول بكلمات غير مفهومة، وتمد يدها من بعيد نحوه تريد أن تصل إليه لتمزقه، وهو واقف لا يدري ما الذي يحدث..!

نظر إليه أحدهم وقال:

ـ أرأيت جريمتك أيها الإنسي؟!

أجاب باندهاش:

ـ أية جريمة؟!

ـ هذه المرأة التي قتلتها؟
ـ أنا لم أقتل أحداً..!!
ـ أنت تكذب.. لقد قتلت الليلة هذه المرأة الحامل، والتي تراها الآن تصرخ أمها.
هنا تذكر..فأجاب:
ـ ولكني قتلت الليلة قطة..!
مازال صوت الأم يصرخ ويطغى على صوت المحكمة، فأمرها القاضي أن تهدأ، وإلا أخرجها من الجلسة، ثم وجه الحديث إليه ثانية:
ـ هل القطة التي قتلتها الليلة آذتك في شيء؟!
فأجاب والرعب يتملكه:
ـ لا.. ولكنها تشبه قطاً قد أذاني.
ـ فلماذا قتلتها إذن؟! أتأخذها بذنب غيرها؟!
لم يستطع الإنسي الجواب ووقف تائهاً لا يدري ماذا يقول، هنا التفت القاضي إلى السيدة والدة القتيلة وقال لها :
ـ ما الحكم الذي يرضيك في هذا الإنسي؟
أجابت ونار الغضب تنتشر على وجهها:
ـ الذي يرضيني أن أقتله هو وأولاده جميعاً..!
نظر إليها القاضي بحكمة وقال:
ـ ولكنه قتل خطأ..لم يكن متعمداً.
فكرت المرأة وتشاورت مع أهلها، ثم قالت بحدة:
ـ لو قتلته أرحته.. ولكن أرى أن يظل حياً ليرى أبناءه جميعاً يموتون من حوله ليشعر بالحسرة التي أحترق بها.
كان أولاده في ذلك الوقت أربعة اثنان من الذكور واثنتان من الإناث.
قال القاضي:

ـ وما ذنب الأولاد؟!

أجابت:

ـ وما ذنب ابنتي؟ وما ذنب أولادها الذين ماتوا معها؟ لابد أن يحترق بنار فقدانهم كما احترقت أنا بنار ابنتي وأولادها.. ودعني أيها القاضي أنفذ هذا الحكم بنفسي، حتى إذا رزق بأطفال آخرين سوف أقوم بقتلهم حتى يصل العدد إلى سبعة؛ فلن يرضيني في ابنتي وأولادها أقل من ذلك.

تداول القاضي مع مستشاريه، ثم نطق بالحكم:

ـ أنت أيها الإنسي مدان، ولقد قررت محكمة الجن أن نقتل من أولادك سبعة، ولكن رأفة بك، ومراعاة لجهلك، قررنا أن نأخذ واحداً ونترك لك ما بعده، ثم نأخذ الثاني ونترك لك ما بعده، إلى أن نصل إلى العدد سبعة.

فجاة وجد نفسه في وسط داره، دخل على أولاده ليطمئن عليهم فوجدهم يغطون في نومهم كما تركهم، ظن أنه كان يحلم، لكنه سأل نفسه عندما استيقظت وجدتني في وسط الدار رغم اني كنت نائماً في الغرفة ما الذي أخرجني؟ هل مشيت وأنا نائم؟ لم يحدث ذلك لي من قبل.

بعد شهر من هذه الحادثة مرض ابنه الأكبر وكان شابا في العشرين من عمره، مع أن صحته كانت قوية، دار به عند كثير من الأطباء فلم يستطع منهم أحد أن يشخص حالته، وأصبحت حالته في تدهور دائم، لم يطل به المرض أكثر من شهر ومات هذا الشاب.

تحكي والدتي وكانت تقف على غسله أنها رأت كفاً مرسوما على ظهره بأصابعه الخمس بدماء متجمعة تحت الجلد، وظل الامر هكذا يموت من عليه الدور مهما كانت سنه بنفس الطريقة ونفس العلامة، ويعيش من بعده، إلى أن بلغ عدد المتوفين سبعة، ومن نعم الله عليه أن عاش له سبعة من البنين والبنات